

الثقافة والمثقفون فى كتابات عاطف العراقى رؤية تنويرية نقدية

علاقة المثقفين بالسلطة فى كتابات عاطف العراقى

شغلت قضية الثقافة والمثقفين بأبعادها ومجالاتها المتعددة اهتمامات الدكتور (العراقى) طوال تاريخه الفكرى بحيث يمكننا القول بأنه من الصعوبة أن نجد مؤلفا من مؤلفاته يخلو من الكتابة أو الإشارة إلى هذه القضية سواء من حيث تحديد مفهومها أم تعريف المثقف وتأکید دوره التنويرى والوصول من ذلك إلى ضرورة وجود أيديولوجية ثقافية تفرض وجودها على العصر.

ولقد دارت تساؤلاته عن تحديد الدور الذى يجب أن يضطلع به المثقف فى هذا العصر، وما هى الأسس التى ينبغى أن يتسلح بها؟ والشروط التى يجب توفرها فيمن يعد مثقفا كما حاول التفرقة بين المثقف الحقيقى وغيره من أشباه المثقفين، بل إنه تساءل هل يمكن القول بأن لدينا مثقفين حقيقيين؟ وهل توجد ثقافة عربية معاصرة؟ هذا بالإضافة إلى أن قضية الثقافة والفكر وعلاقتها بالسلطة أيا كانت هذه السلطة (مادية - سياسية - دينية) كانت من أهم الموضوعات التى أفاض فى تحليلها وسبر أغوارها موضحا وكاشفا بأسلوبه التهكمى اللاذع

ومنهج النقدى البارع أبعادها وخفاياها وعلاقتها بأصحاب التوكيلات الفكرية والمصالح الأصولية الرجعية أو ما يسمى «بالبتروفاكر»^(١). ولقد هاله ما أصاب الحياة الثقافية فى مصر من ترهل وما شابها من ضعف وضياع وما ساد فيها من عراق وصرع وشللية فحشد قواه الفكرية وطبيعته النقدية الحادة فى تشريحه لطوائف المفكرين والمثقفين فى عالم اليوم وهو العالم الذى يرى (العراقى) أنه يموج بأشبه الدارسين وأنصاف المثقفين وأصحاب التوكيلات الفكرية وأصحاب الفكر المتزمت أو الرجعى. وعلى رغم ما بدى فى تحليلاته من فقدان الأمل فى مواجهة تلك الموجة العارمة الجارفة لكل قيم ومبادئ قد استقر عليها الناس إلا إننا يمكننا القول بأنه وبحكم طبيعته المتحدية وإصراره القوى وإرادته التى لا تلين لم يستسلم لتلك الموجة الجارفة وإنما أخذ على عاتقه مواجهتها بكل ما أوتى من قوة الفكر، وبيان الحجة ومنهجية التناول أملا فى رسم مستقبل جديد لثقافة جادة ثقافة معاصرة يستطيع معها شبابنا.. شباب اليوم وأمل الغد أن يتسلح بها ليواجه ثقافة عالمية تحاول فرض وجودها على العالم أجمع فتطيح بكل معتقداته ومقدساته ومبادئه. ولا شك أن الحديث عن ثقافة عالية إنما يقودنا إلى قلق أستاذنا وتساؤله فى أسلوب استفهامى: هل استعداد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد؟

(١) يقصد به المؤلف الأفكار التى تدور فى إطار البترول أو بمعنى آخر تأثير الأموال على الأفكار والإنتاج الثقافى عموما.

ويشير إلى أن التساؤل يعد نوعاً من أنواع التحديات التي تواجه المسلمين وعلى رغم تعدد التحديات من سياسية إلى اجتماعية واقتصادية إلا أن أخطرها هو التحدي الثقافي لأننا نستطيع الحكم على أي مجتمع من المجتمعات من خلال ثقافته السائدة وما يرتبط بها من تطبيقات تكنولوجية، بل إننا لا يمكننا أن نحكم على أي مجتمع تنفصل فيه الجوانب الثقافية عن الجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها.

ويستطرد (العراقي) بقوله إذا كنا نعيش اليوم في عالم متغير عالم تسوده الكثير من التيارات السياسية والاقتصادية والفكرية فهل نعزل أنفسنا عن هذا العالم ونعيش بمنأى عنه مؤثرين السلامة؟ أم نفتح على هذه الثقافة ونتعامل معها نأخذ منها ما يتوافق معنا ويدفعنا إلى التقدم والرقى؟؟

ومن الواضح أن د. (العراقي) لم يكن من أولئك المفكرين الذين يعتقدون أنه لا يمكن حدوث تنمية أو ثورة تقدمية في العالم العربي بدون فلسفة التنوير العالمية أو الأفكار الغربية وحدها، بل إنه كان يؤمن بأن لكل ثقافة إطاراً عقلياً لثورتها يتفق مع هويتها ومن هنا نجده يشير إلى أننا لا نتصور نظاماً ثقافياً عربياً جديداً إذا لم نأخذ من تراثنا كل ما يؤدي إلى نهضتنا وبحيث لا يكون معوقاً لمسيرتنا الإنسانية. إذ إن المسلمين عن طريق شخصيتهم المتميزة وعن طريق العمل الدائب من جانبهم يستطيعون الوقوف موقفاً المؤيد لفكرة ما

والرافض لفكرة أخرى.. ومن هنا فلا بد أن ننتفتح على هذه الثقافة، وقد أصبح العالم قرية صغيرة ولا يصلح أن نخشى من تلك الثقافة، بل يجب أن نتعامل معها ونأخذ في الحوار مع قضاياها وأفكارها.

من هو المثقف؟

إذا كان الأمر كذلك فإننا نجد أن تحديد مفهوم المثقف قد شغل اهتمام (العراقي) خاصة وأنه في هذا العصر قد حدث خلط غريب بين المثقف من جهة والمتخصص الدقيق في مجال من مجالات العلوم الإنسانية أو غيرها من العلوم من جهة أخرى، بل إن البعض حاول أن يقصر الثقافة على نوع واحد فقط وهو الثقافة الدينية، ومن هنا نجده يحدد المثقف بقوله «إذا اقتصر المتخصص على مجال معين من المجالات فإنه ليس من الضروري أن يكون مثقفا، بل إنه لا يكون مثقفا إلا إذا أضاف إلى تخصصه اهتماما بالمجالات الثقافية على اختلاف أنواعها ومظاهرها وبما تشمله من فنون وآداب، ويؤكد أن المثقف ينبغي أن يهتم اهتماما بالغا بكل قضايا التنوير والقضايا النقدية فالمثقف التنويري هو الذي توارقه هموم الأمة العربية بحيث تصبح حياته الفكرية هي القضايا المصرية لعالمنا العربي فلا يحيا إلا بهذه القضايا ولا يعيش إلا من أجلها ويؤكد ذلك بقوله: «إن من خصائص المثقف أن يكون مستنيرا ولا يكون منغلقا على نفسه، أن يكون عقله مفتوحا على كل التيارات الفكرية، وأن يكون وجدانه حرا بحيث لا يتردد في دراسة الأفكار

الأدبية والتيارات الفنية، أن تكون له وجهة نظر يدافع عنها ويناقش فى هدوء أوجه النظر الأخرى إنه بمقتضى ثقافته التى كونها لنفسه يمتلك قدرة نقدية، يمتلك القدرة على التحليل والموازنة والحكم على الأحداث الاجتماعية والسياسية وبذلك يمتلك القدرة على المقارنة بحيث تصبح له شخصيته التى تميزه عن الشخصيات الأخرى».

إذا كان هذا هو المثقف من وجهة نظر (العراقى) فإنه يستنتج أن المثقف على هذه الصورة لابد وأن يقوم تكوينه الفكرى على تفضيله للجوانب المعنوية ورفعها فوق الجوانب المادية الجسدية فكلما ارتقى فكر الإنسان واتسعت دائرة معرفته كلما كان مفضلاً لكل ما هو معنوى ومدركاً لأهميته.

المثقف والسلطة:

وإذا كان هذا هو مفهوم الثقافة والمثقف كما عرضه د. عاطف (العراقى) فى أكثر كتبه ومؤلفاته وبالأحرى فما هى علاقته بالسلطة هنا؟ هل هى السلطة السياسية فى علاقاتها المتباينة والمتأرجحة بين التأييد والمعارضة والناوثة والمناهضة؟ أم إنه يقصد السلطة المادية التى استعبدت المثقف وغيرت وجه الثقافة ومضمونها بسلطتها المادية العارمة أو ما سُمى «بالبتر وفكر»؟ أم يقصد السلطة الدينية بقوتها القاهرة ورجعيتها الأصولية التى تستمدّها من قدسية النص الدينى وتهدد به كل كيان سياسى وتلوح به فى إثارة العامة وإلهاب مشاعرها لتطيح بكل ما يهدد كيانها ويقترب من حصنها؟؟

لا شك أن د. (العراقى) قد أفاض فى تحليل ونقد كل ما يتصل بمفاهيم السلطة المختلفة من مادية ودينية وسياسية. ونشير إلى أن علاقة السلطة المادية بالثقافة كانت من أخطر العلاقات لأنها استعبدت الإنسان وأحاطت بمفاهيمه وقيمه الوجدانية والأخلاقية والمعرفية وحصرتها فى دائرة مغلقة هى دائرة فكر التخلف والرجعية يقول (العراقى) مؤكداً ذلك «إن ظاهرة «البتروفكر» أدت إلى ضعف ثقافتنا العربية وجعلها ثقافة محلية راكدة لا نستطيع أن نخاطب بها مثقفى العالم الحر والمثقفين فى البلدان المتقدمة» ويتعجب د. (العراقى) من قوة تأثير «البتروفكر» فى إثارة مجموعة من القضايا الزائفة فى الوقت الذى كان لابد لهذه الأموال أن تؤدى إلى نشر الفكر الواعى المستنير خاصة وأن العروبة تعد ثقافة قبل أن تكون سياسة ولقد كان للبتروفكر أثره فى إجهاض محاولات التنوير والتقدم التى سادت طوال القرن العشرين بتأييده لبعض القضايا التى كان لها تأثيرها السلبى فى الثقافة العربية مثل. قضية الغزو الثقافى، قضية الهجوم على الحضارة الأوروبية، قضية الخلط بين الدين والعلم، وقضية أسلمة العلوم، قضية نشر الهجوم على الفكر العقلانى الفلسفى، ثم قضية الدفاع عن التراث جملة وتفصيلاً على رغم ما يوجد فى هذا التراث من لا معقول وخرافة.

ويؤكد (العراقى) أن مصر فى مطلع القرن العشرين وهو عصر التنوير قد ظهرت فيها مجموعة من الاتجاهات الفكرية والأدبية التى كان

بالإمكان أن تتبلور في المستقبل إلى نظرية تقدمية كاملة ولكن ظاهرة «البتروفكر» أى الفكر الذى يدور فى فلك البترول وارتباط البترول بالدولار وماله من سحر عجيب وسلطة القاهرة قد أجهضت هذا النمو والتبلور فى فترة النصف الثانى من القرن العشرين.

وأما فيما يتعلق بالسلطة الدينية وانعكاساتها على السلطة السياسية فقد شن عليها د. (العراقى) حملة شعواء فى أكثر مقدمات كتبه ومؤلفاته واستند فيها إلى مفكرين من مثقفى الأمة يباعد بينهما ما يقرب من ثمانية قرون أولهما الفيلسوف ابن رشد الذى فسر ما حدث له من اضطهاد ونفى فى عصر الخليفة أبو يوسف بن يعقوب بن عبد المؤمن الملقب بالمنصور بإرجاعه إلى أسباب دينية فلسفية تعود إلى تهويلات بعض غلاة الفقهاء من المالكية الذين صوروا بعض مبادئه وأقواله على أنها تحمل فى طياتها كفرا وزندقة. وكيف أن السلطة السياسية تأييدا لهم وتنزلا إلى الشعب وخوفا مما يؤدى إليه تهويل الفقهاء وهم الذين يسيطرون على الشعب قد اتخذت قرارها بتقييد الفكر والفلسفة وهو ما يعرف بالنكبة التى تجاوزت ابن رشد وشملت مجموعة من الباحثين والمثقفين فى ذلك العصر.

وأما المفكر الثانى فهو الشيخ الإمام محمد عبده المثقف التنويرى الذى كانت آراؤه الجريئة ومواقفه التنويرية فى مجال الفتيا والقضاء سببا فى إبعاده عن وظائفه واضطهاده ونفيه، ويستعرض د. (العراقى)

بأسلوبه التحليلي الشيق كتاب الإسلام دين العلم والمدنية للإمام محمد عبده حيث ركز الإمام في أصول الإسلام على مبدأ تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض وأفاض في شرحه مؤكداً أن المتأمل في هذه الأصول لا بد وأن يدرك تماماً أن العيب ليس في الدين ولكن العيب في فهم بعض المشايخ وغيرهم لهذا الدين فالمشكلة تكمن في العقول الصخرية الجامدة التي تنسب إلى نفسها الوصاية على الدين وكأن الدين قد جاء لهم فقط، وكأن الدين لا يصلح أن يقترب من فهمه وتفسيره إلا أمثال هؤلاء وكانت النتيجة الحتمية لتفسيراتهم الجامدة المغلقة المنغلقة على نفسها أن باعد كثير من الناس بينهم وبين الدين لأنهم ظنوا أن الدين إنما هو الدين من خلال القوالب الجامدة التي قال بها أناس أطلق بعضهم على أنفسهم إنهم من رجال الدين والدين منهم براء، بل إن هذه التسمية قد تؤدي إلى تقسيم الناس إلى رجال دين ورجال يدخلون في دائرة اللادين ويؤكد د. (العراقي) أن أحكام هذه الطبقة تذكرنا بأحكام محاكم التفتيش في أسبانيا ومن المؤسف له إننا نجد هذه الأحكام الجائرة، الأحكام الصادرة بعقوبة التكفير الديني تجيء عن أناس يعيشون بيننا في هذا القرن العشرين.

ويواصل د. (العراقي) نقده لهذه الطبقة من خلال الأصول التي عرضها الشيخ الإمام محمد عبده ويتناول أصل قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من أساسها بقوله «إن الإسلام قد عمل على هدم السلطة الدينية ولم يجعل لأحد سلطاناً على عقيدة أحد ولا سيطرة على إيمانه.

فالرسول ﷺ كان مبلغا ومذكرا لا مهيمنا ومسيطرًا، فليس في الإسلام ما يسمى بالسلطة الدينية ويؤكد (العراقي) إننا في هذا العصر في أمس الحاجة إلى أقوال محمد عبده، وذلك لوضع الأمور في نصابها وفهم الدين فهما صحيحا فالخليفة عند المسلمين (وهو ممثل السلطة الدينية والسياسية) ليس بالمعصوم ولا هو مهبط الوحي، وليس من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة فليس في الإسلام سوى سلطة الموعدة الحسنة والدعوة إلى الخير والتنفير من الشر، وإذا كان يقال: إن لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الإسلام؟ فإن محمد عبده يجيب عن ذلك قائلا وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها المشرع الإسلامي ولا يجوز لواحد منهم أن يدعى حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه أو ينازعه في طريقة نظره».

عاطف العراقي بين نظرة التشاؤم والتفاؤل في تصوره للثقافة العربية

وعلى رغم هذا النقد اللاذع الذي تميزت به مؤلفات الدكتور (العراقي) إلا إنه لم يقف عند حدود النقد والتشكيك والمواقف السلبية وإنما تعداه إلى مواقف إيجابية تمثلت في وضع مؤلفين من مؤلفاته هما «الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية» و«الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل» تصور فيهما أيديولوجية عربية جديدة تسير التطورات العالمية بتقنياتها المتقدمة وتطوراتها السريعة المتلاحقة.

أقول: على رغم ما يسود معظم مقدمات كتب (العراقي) من نظرة تشاؤمية عددت عوامل عرقلة تصور مستقبل مشرق للثقافة العربية، وعلى رغم أنه يؤكد أننا إذا تأملنا بدقة الأساليب أو الأسلحة التي تعتمد عليها قوة عرقلة التنوير والتقدم فإن المتأمل الموضوعى لابد أن يؤدي به ذلك إلى القول أو الاعتقاد بأن قوة التغيير عند أهل التنوير لن تتحقق على أحسن الفروض إلا في مستقبل بعيد وليس في مستقبل قريب أقول على رغم ذلك إلا إنه حين يتحدث عن مستقبل الثقافة العربية الإسلامية نجده يقول «أعتقد من جانبي بوجود مستقبل سوف يزدهر بفكرنا الإسلامى وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن المادة وحدها لا تحل مشكلات الأفراد والشعوب والدليل على ذلك أن هناك كثيرا من الأمم والشعوب مزدهرة ماديا ومع ذلك يكثر بين أبنائها حالات الاكتئاب والانتحار واليأس بشكل عام، وإذا قلنا بأننا الآن ومستقبلا فى أمس الحاجة إلى إضافة البعد الروحانى النفسى الخلاق إلى البعد المادى للحضارة فإن هذا يؤكد على وجود مستقبل مزدهر للفكر الإسلامى، وإذا كان عالم اليوم وعالم الغد فى أمس الحاجة إلى القيم الروحية فإن معنى ذلك أن الناس فى أقصى أرجاء العالم سيشعرون بالخسارة الكبرى بعد أن ابتعدوا عن القيم الروحية الدينية وسيجدون أن من أوجب الواجبات الرجوع إلى تلك القيم حتى يحققوا على الأقل نوعا من التوازن بين المادة والروح ولكن لابد لى من القول بأن المستقبل المزدهر

للفكر الإسلامى لن يتحقق إلا من خلال عقول تبتعد عن الفهم الضيق المتحجر لهذا الفكر الإسلامى».

يؤكد (العراقى) إنه بإمكاننا أن نقدم للعالم أيديولوجية عصرية فالفكر العربى فى حد ذاته يعد فكرا متفتحا فكرا يمكنه أن يستوعب الكثير من التيارات والاجتهادات مع الإيمان بمبدأ الانفتاح على العالم والنظر برؤية متفتحة نظرة تؤمن بالاجتهاد، نظرة تجعل العقل معيارا وأساسا، ذلك العقل الذى يستطيع أن يجمع بين العلم والحضارة فى اتجاه واحد، كما يجب أن يكون للجامعات العربية والإسلامية مناهجها المتطورة والتى يجب أن تبرز الجوانب المشرقة من تراثنا، تلك الجوانب التى اتسمت برؤية عقلانية مستنيرة. بل يجب أيضا أن تربط بين العقيدة والمجتمع بمعنى دراسة الأثر الاجتماعى للعقيدة لأن هذا سيساعدنا على إبراز أثر الدين فى حياة الشعوب وعدم النظر إليه وكأنه منفصل عن الحياة التى نحيهاها. إنه تصور يجمع بين الدين والدنيا ويقوم على العقل والاجتهاد.

نحو أيديولوجية ثقافية جديدة

يؤكد (العراقى) إن فكرنا العربى بوجه عام يخلو من أيديولوجية معينة وما ظهر من أفكار أو مذاهب لا يعبر عن ثقافة حقيقية فى المجتمع وإنما يعبر عن حالة من حالات الضياع والظلام والموت إذ إنها لا تستند إلى أساس فكرى أيديولوجى ولا تقوم برصد الواقع أو التعبير عنه تعبيرا صادقا إنه فكر أجوف مسطح يعبر عن ثقافة هشة مظلمة.

إن (العراقي) يتساءل فى دهشة ويتعجب هل من المناسب أن يتحدث فريقيق منا عن الغزو الثقافى فى الوقت الذى نعلم فيه جيدا أن العالم أصبح قرية صغيرة ونعلم أيضا أنه لا مستقبل لفكرنا إلا إذا التحم بالأفكار الأخرى فى كل دول العالم وأخذ فى حوار معها؟؟؟
إن الأيديولوجية الجديدة يجب ألا تعتمد على التغنى بأمجاد الماضى أو تكون تقليدا لأفكار السابقين أو الأمم الأخرى.

إن الأيديولوجية الجديدة لابد أن يكون شعارها تقديس العقل ولا بد أن يكون محورها السعى إلى التنوير بكل قوة وجهد.
لابد أن تكون قضيتها الكبرى تغيير الواقع بحثا عن الأفضل وليس مجرد تفسير الواقع أو تبريره.

إن الإيديولوجية الجديدة تعتمد اعتمادا أساسيا على فتح مجال الإبداع فى التعليم والثقافة والعلم والتكنولوجيا والإبداع ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا فى جو من الحرية والانفتاح على أفكار الآخرين فى دول العالم من مشرقها إلى مغربها.

إن الإبداع يرتبط ارتباطا وثيقا بالسعى نحو التنوير والانطلاق من الماضى والحاضر إلى المستقبل والواقع أن ذلك لن يتحقق إلا بإزالة معوقات الإبداع وهى لا شك معوقات تعرقل سبل التنوير والتقدم ولقد حددها فيلسوفنا النقدى فى عدة أسباب منها:

١ - الخلط بين الدين والسياسة والنظر إلى التنوير على أنه رجس من عمل الشيطان وأنه مرادف للكفر والتكفير.

٢ - الفصل بين التعليم الدينى والتعليم المدنى إذ كيف نقول بالمجتمع الواحد وفى نفس الوقت نفصل بين تعليم وتعليم.

٣ - إن من عوامل تعويق الإبداع ترجمة كتب العلوم ومن بينها الطب ومنتساءل إذن كيف سيتعامل المنشغل بهذه العلوم مع الكتب التى تصدر كل يوم وهى بلغات غير عربية وخصوصا إذا كان يجهل لغاتها ولا يتعامل بها؟

٤ - إن نظام التعليم الحالى ومناهجه لا علاقة لها بالتنوير ولن تخلق مبدعين.

إن مناهجنا الحالية تقوم على الحفظ والترديد والتقليد والمبدع له نظرتة التقدمية أما المقلد فإن نظرتة دائما إلى الوراء.

إن الأيديولوجية الفكرية النقدية التى يدعو إليها أستاذنا والذى وقف بسببها أمام محكمة جنابات المنصورة فى الخامس عشر من مايو عام ١٩٩٥م تستند إلى التركيز على الإبداع والذى لا يمكن أن يتحقق إلا إذا نظرنا إلى الإنسان نظرة جديدة نظرة شمولية إلى حقوق الإنسان، تلك الحقوق التى لاتقتصر على حقه فى الحياة فقط بل حقه فى السلام والتعليم والعرفة، إذا نظرنا إلى الإنسان ككائن علمى على أساس أن البحث العلمى نفسه يعد عملا إبداعيا. إذا نظرنا إلى تربية الإنسان على اعتبار أنها تربية ترى الغد أفضل من الحاضر وأنها تربية تعتمد على إرادة قوية تتخذ من العلم والعرفة والاستنارة سلاحا لها. فهل يحقق لنا هذا العرض والتحليل لأفكار أستاذنا ولآرائه أن نكون أكثر تفاؤلا

منه ونرى الأمل في غد مشرق ومستقبل زاهر لأمتنا العربية الإسلامية؟
أرجو ذلك وإن غدا لناظره لقريب.

نقد أسطورة الغزو الثقافى

يرتبط بموضوع الثقافة والمثقفين عند (عاطف العراقى) كثير من القضايا والموضوعات بل أستطيع القول بأنه أثار من خلالها العديد من المشكلات والإشكاليات التى ارتبطت بها سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة وعلى سبيل المثال لا الحصر أسطورة الغزو الثقافى، علاقة التليفزيون بالثقافة، لغة الثقافة، أسلمة العلوم، والتسامح الدينى وقبول الآخر فى الثقافة المصرية وغيرها من القضايا الشائكة خاصة فى ظل توجه عام بالانغلاق والريبة والشك فى كل ما يأتى من الغرب لقد اتصل مفكرون ورواد نهضتنا فى العصر الحديث بالغرب ونهلوا من ثقافته وتقدمه وفى هذا العصر الذى تخلفنا فيه المفروض أن نرحب بأفكار العالم المتقدم فمناه زدهرت أكثر العلوم والفنون ومنه انتشرت الأجهزة والمعدات التكنولوجية والإلكترونية المتطورة ولذلك يستهجن (العراقى) الهجوم الضارى على تلك الحضارة ويرى أنه يمثل نوعا من التناقض إذ كيف نهاجم هذه الحضارة وفى نفس الوقت نستخدم السيارة التى تعد ثمرة من ثمرات الحضارة. أليس من الغريب والمؤسف أن نهاجم الحضارة الغربية من خلال كتاب مطبوع والمطبعة إحدى المنجزات العلمية لهذه الحضارة؟! وفى ملاحظة دقيقة للعراقى

تشير إلى أن صاحب الفكر التقليدي هو من يقوم بالهجوم على العلم والحضارة أما صاحب الفكر التجديدي فإنه لا يهاجم تلك الحضارة بل يستعين بها ويستفيد منها.

يؤكد (العراقي) أن ما يسمى بالغزو الثقافي ما هو إلا وهم، وهي قضية زائفة كثر الجدل والنقاش حولها في السنوات الأخيرة خاصة مع دخولنا قرن جديد أصبح العالم فيه قرية صغيرة جراء انتشار وسائل الاتصال الإلكترونية وانفتاح العالم على الفضائيات الكونية وشيوع الفكر والثقافة العالمية ويتساءل (العراقي) هل من المعقول وبعد انتشار هذه الوسائل المتطورة أن نتحدث عن الغزو الثقافي؟ وهل يمكن أن نتصور مثقفا الآن إذا كان يجهل أحدث النظريات العلمية والأدبية والفنية والفلسفية؟ كيف يمكن أن نقوم بنشر ثقافة النور وتطوير جامعتنا العربية ونحن نقيم سدا منيعا بين ثقافتنا المحلية المحدودة الانتشار وبين الثقافة العالمية؟ كيف نتحدث عن قضايا التنوير والثقافة العالمية في الوقت الذي يتحدث فيه أشباه المثقفين عن الغزو الثقافي.

ويؤكد أننا إذا سايرنا أصحاب الفكر التقليدي الجامد واعتبرنا أن الانفتاح على الثقافة الغربية المتقدمة في شتى العلوم والفنون والآداب هو نوع من الغزو يهدد ثقافتنا لذا يجب مقاومته فلا شك أن ذلك سيؤدي بنا إلى حالة من الاغتراب عن الثقافة وستصبح حياتنا في واد والعالم كله في وادٍ آخر بل سيؤدي بنا ذلك إلى الانفصام عن الواقع

واجترار الماضى والانعزال عن الأحداث الجارية حتى نجد أننا نتحدث مع أنفسنا بعد أن نسينا العالم الآخر لضعفنا وتخلفنا وجهلنا. لذا يدعو (العراقي) إلى ضرورة نشر الأفكار التقدمية والعلمية التى تأتىنا من العالم الخارجى عن طريق الترجمة والبعثات وجميع وسائل الإعلام، لابد أن يكون لنا فى دعاة التنوير والانفتاح على العالم الخارجى من أمثال رفاة الطهطاوى وطه حسين ومن قبلهما ابن رشد وغيرهم من رواد الفكر المستنير أسوة حسنة ومثلا يحتذى به حتى ندخل عصرا جديدا يماثل عصر النهضة الأوروبية.

الدور الثقافى للتلفزيون والأحزاب السياسية (رؤية نقدية)

لا شك أن التلفزيون كأداة إعلامية لها تأثيرها الخطير فى العقل والتفكير والوجدان بوجه عام سواء كان هذا الأثر يمثل صورة إيجابية أم صورة سلبية وقد يدفعنا ذلك إلى التساؤل هل تؤدى برامج التلفزيون على اختلافها إلى تقدم التفكير ونهوض العقل وتشكيل الوعى الإيجابى أم أنها على العكس من ذلك تحدث آثارها السيئة على الفكر الإنسانى العقلى بمختلف صوره وتعدد مجالاته.

يشير (العراقى) إلى أن التلفزيون قد أثر فى العقل المصرى تأثيرا سيئا وأن برامجه قد أدت إلى نوع من الاغتراب عن العقل والمعقول بل إنه

يؤكد أن الخرافة والأسطورة واللامعقول قد سيطرت على عقول ملايين الأفراد الذين اقتصروا على أن تكون ثقافتهم معتمدة على التلفزيون وحده وخاصة من يقطنون القرى والنجوع والكفور فى محافظات مصر المختلفة، على رغم أن التلفزيون يقدم خدمات جليلة لهؤلاء المواطنين البسطاء سواء من خلال برامج التعليم أم دروس محو الأمية، لكن الواضح أن سطحية البرامج التى يقدمها واعتماده على التسلية والترفيه أكثر من الاعتماد على تشكيل الوعى والوجدان قد أضعف من دوره التنويرى ووظيفته الإعلامية الجادة مما جعل أستاذنا يسلط عليه الضوء ويوجه أسلحته النقدية الحادة للدور الذى يقدمه التلفزيون فى مجال الثقافة ويؤكد أن ما يقال عنه برامج ثقافية بالتلفزيون لم تؤد الغرض المقصود منها وبالتالى فلا توجد علاقة مباشرة بين التلفزيون وبين الثقافة فالتناقض واضح لكل من يحلل هذه العلاقة إذ إنه فى الوقت الذى يستمر إرسال وبث برامج التلفزيون لساعات طويلة ليلا ونهارا نجد شبابنا فى حالة تدهور ثقافى وقد وصل إلى حالة من الجهل والامية الثقافية لا حدود لها. إن هذا الموقف المتناقض يدعونا إلى أن نتساءل هل يمكن أن يصبح التلفزيون قناة من قنوات الثقافة فى مصرنا المعاصرة؟ هل تقتصر وظيفة هذا الجهاز الإعلامى الخطير على التسلية والترفيه فقط؟ أم أن له وظيفة وهدفا ثقافيا يعمل على نشره بين شباب الجيل الحالى؟

فى لغة نقدية حادة يؤكد (العراقى) أن التليفزيون ببرامجه الحالية ليس له أدنى علاقة بالثقافة ولم يترك أى بصمة من البصمات القوية على ثقافة جيلنا الحالى بل يؤكد أن التليفزيون فى مصر قد باعد بين جيلنا وبين التزود بالقيم الثقافية الخلاقة المبدعة بل قد يظن من يشاهد هذه البرامج وكأن التليفزيون قد دخل فى حرب ضد الثقافة وقضاياها وأصبح التلازم واضحا بين هذه البرامج وبين السخرية من الثقافة الصحيحة الجادة.

ويتساءل فى أسى هل الثقافة هى أن نكثر من مسلسلات يقال عنها مسلسلات تاريخية- عن مفكرين وأدباء- تتضمن حشدا من الأخطاء لا سبيل إلى حصرها؟ وهل الثقافة تتمثل فى الأغانى التافهة الكلمات، والرقصات المثيرة للغرائز، وأحاديث وأخبار لاعبى كرة القدم؟ هل من المعقول أن يتحول إلى أداة لنشر الأخطاء اللغوية وسيادة اللغة العامية والبعد عن العربية الفصحى؟ وهل تكون الغلبة والانتشار لبرامج تكريس الفكر الغيبى ونشر الخرافات والخزعبلات؟ ويجيب فى حدة بالغة أن الثقافة يا سادة لا تصدر عن الأرجل والأقدام ولا تصدر عن هز البطون والأجسام بل الثقافة هى ما كانت صادرة عن وجدان راق نبيل صادرة عن عقل يحترم خصائص التفكير البشرى عقل يحترم العلم والحضارة، والثقافة هى ما يعبر عنها بلغة راقية وفهم مستنير.

وإحقاقا للحق فإن (العراقى) يشير إلى أن التليفزيون وحده ليس مسئولا عن تدهور الثقافة فى الأجيال الحالية كما أنه لا يمكن أن تكون

وظيفته وظيفته ثقافية فحسب وأن تكون برامجه الثقافية هي المسئولة عن تكوين ثقافة الأجيال الجديدة فهناك الكتاب في مجالاته المختلفة وخاصة المجالات العلمية فقد كان في الماضي وسيلة التثقيف الجاد وهدف الحاضر أيضا وسيظل في المستقبل على رغم المنافسة الحادة التي يواجهها من التليفزيون والإنترنت وهي وسائل سريعة الانتشار ومزودة بكم هائل من المعرفة والمعلومات ولكن كيف يمكن لهذه الأداة الإعلامية المهمة أن تخرج من هذا النفق المظلم؟ وكيف تستطيع أن تعيد لنفسها مكانتها ومجدها في إعلاء شأن الفكر والثقافة العقلانية التنويرية؟ كيف يمكن للتليفزيون أن يساهم في تشكيل عقل ووجدان الأمة المصرية خاصة في هذا العصر الذي ثار على التقليد والجمود أملا في حاضر متجدد يتسم بالعدالة والشفافية والمصداقية ويكون مستقبلا مشرقا وآماله عريضة؟

يشير (العراقى) إلى ضرورة التكامل بين أجهزة الثقافة المختلفة وبين التليفزيون مع ضرورة وضع خريطة ثقافية - يشارك في وضعها وتحديد معالمها مفكرون كبار وأدباء نابغون وفنانون يشهد لهم تاريخهم الفنى بالإبداع والعطاء - توائم فى مضمونها بين الأخذ من الماضى ما يتلاءم مع عصرنا الحاضر وتأخذ منه المعقول وتبتعد عن اللامعقول، تهتم بالفكر والمنهج العلمى الذى هو وسيلة التقدم والرقى والإبداع، تعرض النماذج المشرفة والمثل العليا والشخصيات التى شهد لها التاريخ

بعظمتها وتبرز الدور الإيجابي الذي قامت به وقدمته في مسيرة التاريخ الانساني، تعمل على تكوين العقلية الناقدة القادرة على التمييز بين الغث والثمين حتى يكون لها القدرة على الحرية والاختيار الأمثل، تعمل على الاهتمام بالأحداث الجارية مع تخصيص أيام أو أسابيع ثقافية تغطي إسهامات المبدعين سواء من رحلوا عنا أم مازالوا على قيد الحياة هذا بالإضافة إلى الانفتاح على الثقافات العالمية وتغطية الأحداث الثقافية العالمية من إصدارات كتب أو ندوات علمية أو مؤتمرات دولية في شتى المجالات.

ويوم أن نرى أن أهم وظيفة من وظائف التليفزيون هي وظيفة التثقيف بحيث تقوم جنبا إلى جنب مع وظيفته الإعلامية ووظيفته الترفيهية فإن ذلك سيؤدي إلى احترام وتقدير دوره الريادي في تشكيل الوعي الإيجابي للجيل الجديد. أما عن دور الأحزاب السياسية في تشكيل وعي الإنسان وبناء ثقافته وفكره ف(العراقي) يشير في جراحة شديدة ليس إلى ضعف هذا الدور الثقافي للأحزاب فحسب ولكن إلى انعدام هذا الدور أصلا إذ يقول إن من يدرس خطط وبرامج الأحزاب فحسب عندنا بدقة وموضوعية وأمانة يكاد لا يجد في تلك الخطط والبرامج خريطة ثقافية أو خريطة لبناء الإنسان المصري والعربي بحيث أصبح من الصحيح تماما أن نقول إن البرامج الحزبية في وادٍ والثقافة وهمومها ومشكلاتها في وادٍ آخر يبعد عنه بعد المشرق عن المغرب.

وينبهننا إلى خطورة هذا الوضع ويشير إلى أنه إذا استمر حال الأحزاب على هذه الصورة من التباعد بينها وبين الثقافة فسنصل إلى حالة من الانهيار الثقافي لا يعلم مداها إلا الله، وما ذلك إلا لأن هذه الأحزاب قد ركزت فى برامجها على الجوانب الاقتصادية والجوانب الجسمية (الرياضية والبدنية) بالإضافة إلى المناقشات اللفظية الجوفاء كالتفرقة اللفظية الجدلية بين العامل والفلاح وبعض قضايا المشاركة السياسية للمرأة وأحقيتها فى ذلك ومبدأ المواطنة وغيرها من مبادئ الحرية والديمقراطية التى تعقد من أجلها الندوات والمؤتمرات وتتعالى فيها الأقوال والعبارات ولا يتحقق منها شىء على أرض الواقع.

يتساءل (العراقى) لماذا لا نجد لجانا ثقافية فعالة مؤثرة فى كل حزب من الأحزاب؟

لماذا لا نجد دار نشر خاصة بكل حزب ولا يكون عمل هذه الدار مجرد طبع جريدة للحزب أو طبع أوراق للدعاية؟ أين برامج الأحزاب للنهوض بأجهزتنا ومؤسساتنا الثقافية وأجهزتنا الإعلامية؟ أين برامجها الخاصة بالبحث فى قضايانا الفكرية كقضية المحلية والعالمية أو قضية الأصالة والمعاصرة؟ وأتساءل بدورى باعتبارى إحدى المهتمات بالثقافة والمتقنين فى المجتمع لماذا لا تتحول المقاهى والكافتيريات إلى نواد ثقافية تنبض بالحياة والحركة والفكر المتجدد إزاء قضايا ومشكلات المجتمع سياسيا واجتماعيا واقتصاديا بل ودينيا أيضا؟ لماذا لا تعقد بها الندوات الشعرية

وتعرض بها الإبداعات الأدبية بل والمناقشات الحية للأعمال الفنية الراقية رسماً وتصويراً وتشكيلاً فتنتشر الثقافة على المستوى الشعبي ويتشكل الوعي الإنساني بكل روافد الثقافة وإبداعاتها وبذلك تخرج الثقافة من إطارها الضيق على مستوى قصور الثقافة والمجلس الأعلى للثقافة وصالونات الثقافة الأرستقراطية إلى براح واتساع الشارع المصرى على مستوى الأحياء والمراكز والقرى والكفور والنجوع.

لا شك أن أحزابنا لو نظرت إلى الثقافة بعين الاحترام والتقدير وعلى أنها تعد مطلباً رئيسياً يحتاج إليه الإنسان أكثر من حاجته إلى الطعام والشراب والملبس فسوف تعود للثقافة مكانتها فى تلبية احتياجات الناس الوجدانية وسوف يؤدي هذا إلى إثراء الثقافة ووجود مدارس فكرية لها مبادئها وأيدولوجيتها القادرة على السعى نحو واقع أفضل وحياة أكثر ازدهاراً فكرياً وثقافياً وسوف ينحسر الفكر التقليدى الرجعى أمام قوة وانتشار فكر وثقافة المعقول وسوف تكون عقول شبابنا مهياًة للحوار والنقاش والقبول والرفض فى منظومة الثقافة الجادة المستنيرة، سوف يبتعد شبابنا عن التعصب فى الرأى والسطحية فى التفكير وسوف تكون حواراته هادفة جادة تجاه مشاكلنا وقضايانا فى حاضرنا ومستقبلنا.

الفن ودوره الثقافى فى تشكيل الوعي والوجدان

يتناول (العراقى) قضية الفنون فى كل مجالاتها ومختلف أشكالها تناول المفكر الناقد الواعى بدور الفن الراقى الذى يسهم فى تشكيل

الوعى الثقافى ويعمل على بناء العقل والوجدان بناء سليما مما يؤدى إلى التقدم والإبداع الحضارى فهو يركز على الدور الأخلاقى للفن من حيث هو وسيلة لتعميق تجربة الإنسان الحضارية فى مختلف مجالاتها كما يركز على الدور الاجتماعى والثقافى والجمالى القادر على تغيير وتعديل سلوكيات الإنسان وتشكيل وعيه وفكره تجاه الكثير من القضايا والمعتقدات.

فإذا عرفنا أن الجمال هو قيمة من القيم التى يسعى الإنسان إلى أن يلتمسها فى كل ما يراه أو يسمعه أو يحسه أو يقوله أو يتذوقه أو يشعر به لأدركنا القيمة الحقيقية للفنون عموما والجمال بصفة خاصة فلقد أثار الجمال افتتان الناس منذ أقدم العصور وكان من جراء ذلك أن أبدع الإنسان الآثار الجميلة قبل أن يفلسف موضوعها وحين أراد أن يحلل ما يحدثه الجمال فى النفس والروح أبدع فلسفة ظلت المعين الراقى للفكر الإنسانى على مر العصور.

ولا يمكن أن نتحدث عن الفنون فى مجملها دون أن نتحدث عن الجمال فكلاهما يرتبط بالأخر ارتباطا وثيقا ولا يمكن تصور أحدهما دون الآخر فهو القيمة التى نصدرها على إبداع الفنان فى أى مجال، كما يعبر عن الأحكام المرتبطة بهذه القيمة وما تحدثه فى النفس من (لذة- ألم - فرح - سرور - تفاؤل - تشاؤم) فالجمال يعد إذن مظهرا من مظاهر الفن والإبداع فالفن يبدو فى المشاهد الطبيعية من تناسق

ألوان الزهور وتنوعها ورائحتها ومن تغريد الطيور ونغماتها المتباينة من خريبر الماء وهدير الأمواج، من زرقة السماء وتنوع الكائنات يحيط بذلك كله قدرة الدقة فى التناسق والترتيب والنظام مما يشهد بعظمة هذا الكون وخالقه «تبارك الله أحسن الخالقين».

ووفقا لهذا المفهوم الفلسفى للجمال وللمعنى الثقافى للفنون فى مجملها فقد كانت رؤية (العراقى) للفنون ودورها الثقافى رؤية كلية شاملة. بمعنى أنه لا يقف عند حدود النظرة الجزئية المحدودة التى تنظر إلى الفن وتعزله عن بقية الأنشطة الإنسانية المرتبطة به فتستغرقه قضايا التحريم والتحليل فقط وإنما نظر إليه من خلال استيعاب الإسلام كحضارة وثقافة لكل إبداعات الإنسان فى شتى العلوم والفنون ويؤكد أن من يريدون أن يحرموا الفن إنما يريدون أن يقدموا صورة متخلفة عن الإسلام وفى ذلك يقول «من الظواهر التى يؤسف لها الآن الاتجاه إلى تحريم الفنون بكافة صورها وذلك عن طريق اللجوء إلى الدين تارة وإلى فهم الخاطئ لأقوال بعض رجال الدين تارة ثانية وإلى ضرب أمثلة من العصور التى تعبر عن انهيار الحضارة العربية تارة ثالثة ويعقب بنبرة حادة أقول وأكرر القول: إن الذين يلجأون إلى تحريم الفنون باسم الدين لا صلة بينهم وبين الفن من جهة ولا صلة بينهم وبين الدين من جهة أخرى فالدين دعوة إلى سمو الروح وتهذيب الوجدان وتأكيد قيمة التسامح فلماذا إذا نتخذ من الدين سلاحا لمحاربة ما يؤدى إلى

سمو الإنسان؟ بل إنه يتحدى هؤلاء المتشدددين ذوى الفكر المغلق -
الفكر الرجعى- بأن يستخرجوا لنا دليلا دينيا صريحا بتجريم الفنون
بكافة أنواعها وأشكالها وميادينها ومجالاتها.

يسوق (العراقى) برؤيته النقدية التنويرية الثاقبة بعض المبررات
التي دعمت هذا التوجه ودعتهم إلى هذا القول وهو أنهم فى عملية
انتقائية للتراث قد اهتموا بما ساد الحضارة العربية الإسلامية فى
فترات ضعفها واضمحلالها ولم يبرزوا الجوانب المضيئة والنماذج
المشرقة فى فترات مجدها وازدهارها وربما يرجع أيضا إلى تأثرهم
بما ساد المجتمع فى السنوات الأخيرة من فنون هابطة تشبع رغبات
حسية أبعد ما تكون عن الذوق والوجدان وقد يرجع إلى عدم الاهتمام
فى عالمنا العربى المعاصر بالدراسات الجمالية والبحوث المتعمقة فى
مجالات الفنون أو دراسة التراث الأدبى والفكرى دراسة سطحية
بعيدة عن المنهجية الصحيحة والحق أننا لو تأملنا تراثنا الحضارى فى
فترات ازدهاره لاستخرجنا منه من الروائع الفنية الجمالية المعبرة عن
العشق والحب والجمال ما يشير إلى تهافت دعواتهم فالإنسان حيوان
وجدانى زوده الله بالحس الرفيف والمشاعر الفياضة والخيال الواسع
ولولا ذلك لما أبدع الإنسان ولما ازدهرت الحضارات، ألم يحفل تراثنا
العربى الإسلامى بروائع الفن التى تركها الفارابى فى مجال الموسيقى
والألحان بمؤلفه العظيم «الموسيقى الكبير»؟ وهل كان ابن سينا بعيدا عن

الدين حين كتب عن الموسيقى والغناء والألحان وحين تحدث عن الشوق والعشق وأسمى المشاعر الوجدانية فى التصوف الإسلامى؟ أليس الله هو المعشوق الأول والمحبيب الأوحد والجميل لذاته العليا عندهم؟
إن تراثنا الحضارى ليشهد بعظمة تلك الحضارة التى أمدتها الإسلام بكل زاد روحى وجدانى وكل حس دينى فطرى وإن أمتنا العربية فى ماضيها قد عبرت فى تراثها عن الدفاع عن الفنون وبيان دورها فى بناء شخصية الإنسان وتشكيل وعيه الثقافى أما الآن فإننا نرى ما يكشف عن جهل بديننا وجهل بتراثنا وسطحية وسذاجة فى العرض والاستنتاجات لأننا أهملنا تراثنا وأغلقتنا عقولنا فسادت تلك الدعوات الهدامة التى تفصل الحاضر عن الماضى ولا تنظر إلى المستقبل فهل يمكن لأى أمة أو جماعة تريد التقدم والرقى أن تعطل عقلها المفكر وتميت وجدانها وإحساسها وتمنع خيالها من الإبداع والابتكار؟

